**التداولية والنقد الأدبي**

**تحقيق التداولية بعدها أفقا للنقد:**

إن المتأمل في المنظومة المعرفية المشكلة للدرسين الأدبي والنقدي، يقف \_ لا محالة\_ على علاقات النص المؤسسة لمختلف المعارف؛ فحاصل الانتقال من السياق إلى النص ينتج تاريخ الأدب، ومن المبدع إلى النص النقد النفسي، ومحصلة البحث في النص بوصفه غرضا جماليا هو النقد الشكلاني، والبنوي والأسلوبي والسيميائي،أما النص بوصفه انفتاحا فينتج نظرية التناص والنقد التكويني، و اعتبار النص حقيقة اجتماعية يتولد عنه النقد الاجتماعي، في حين أن الاسثمار النص تواصلا ينتج نظرية الاستقبال والنقد التداولي.

على أن النقد التداولي يركز على عد معنى أي ملفوظ يشترك فيه المحتوى الموقعي( قيمته التصويرية) وقوته غير التعبيرية( السلوكية)؛ وهنا لا تؤدي أفعال اللغة من منظور النقد التداولي مهمتها كاملة إلا بشرط وقوف المتلقي على مقصدية الخطاب، وهنا ايضا يجمع المنهج النقدي التداولي في جانبيه النظري والتطبيقي، قضايا تتموضع في مجال مفهومي يفرق بين وضع اللغة وبين استعمالها. وهو ما ينتج مفهوما نقديا ممتدا في عديد التخصصات، هو مفهوم القصدية

حيث نجد المنظور التداولي في النقد الأدبي يستنطق ما في الخطاب عموما من وظائف ومقاصد سياقية، بل يحيل على غايات النص التداولية ومقاصده المباشرة وغير المباشرة، وهنا لا تصبح لغة الخطاب مجرد لغة حاملة للفظ ومعناه، بل لغة وظيفية وتداولية تحمل أبعادا سياقية دينية، وفقهية، وعقدية، وثقافية، وتاريخية، وسياسية.

إن المقصدية في الخطاب ركن عتيد في التحليل التداولي، ذلك أنها تحدد : « كيفية التعبير والغرض المتوخى، وهي البوصلة التي توجه تلك العناصر، وتجعلها تتضام وتتضافر وتتجه إلى مقصد عام، فالمقصدية تحدد اختيار الوزن، والألفاظ الملائمة، وتركيبها بطرق معينة لتؤدي المعنى العام المتوخى، ولذلك نجد البحر الواحد ينظم فيه الشاعر مدحا أو فخرا أو هجاء أو رثاء.... فالمقصد يتحكم في نسيج القصيدة أو المقطوعة، بل في البيت أو شطره مبنى ومعنى ».

وإذا كان الخطاب الشعري يتحكم فيه المقصدية بتعبير محمد مفتاح، فإن الخطاب الأدبي ولارتباطه بالملفوظ يزخر بالمقصدية، وبالدلالات السياقية والتداولية والحجاجية، فكل ما في الخطاب دال؛ ويحمل مقاصد ووظائف سياقية ، سواء أدل عليها اللفظ والنص بعينه أم دل عليها مقام الخطاب الخارجي.

لقد عنيت التداولية بالمتكلم بوصفه طرفا في الخطاب يمتلك سلطة القول ، وبالمخاطب لامتلاكه أدوات التلقي، وكذلك بالقصدية باعتبارها منطقة مشتركة تجمع المتكلم والسامع، فقامت هذه النّظرية على المقصدية، وجاءت نتيجةً حتميةً بعدما أُعطي الاعتبار في مرحلتين متتاليتين للمتكلّم ومقاصده، ثمّ للنصّ خالصاً، حيث كان: « مسار تأويل الخطاب الأدبي و تلقّيه لا يمكن فصله عن مسارات تأويل مجالاتٍ أخرى من النّتاج الفكري: النصّ الفلسفي، النصّ الدّيني، النصّ الصّوفي، الأحلام. هناك مرحلة كانت في الواقع ضدّ التّأويل، وهي مرحلة سادت فيها القصدية، وكلّ ما له علاقة بسلطة الكلام الفردي أو بالفكر المطلق؛ إمّا أن ترفض التّأويل أو أن تُوقفه في نقطةٍ حرجةٍ لا يجوز تخطّيها. هناك مرحلة الموضوعية، التي تهمل الذّات والمقصدية، وعلى إثر ذلك يُهمَل (التّأويل) لصالح المعاينة وإدراك القوانين، وهذه الموضوعية إمّا أن تكون متعلّقةً بالنصّ، أو بالنصّ ذاته لكن في إطار سياقه التّاريخي والاجتماعي. المرحلة الثّالثة أعادت الاعتبار لقضية التّأويل من خلال الاهتمام بالمؤوّل، ذلك أنّه في المرحلة الأولى كانت سلطة صاحب النصّ شبه مطلقة، وفي المرحلة الثّانية تمّ تهميش صاحب النصّ أو ألغي تماماً، ولم يُلْتَفَت إلى المؤوّل لصالح موضوعية (حرفية). لكن في هذه المرحلة الأخيرة أُعطي الاعتبار للقارئ ولتأويلاته».

إذا كانت المرحلة الأولى ثبّتت تبعية المقصدية للمتكلم، فإن المتلقي قد يتحكم فيها أيضا، حين يظطر المتكلم إلى تكييف خطابه حسب رغبات المتلقي، وهكذا يمكننا القول إنه: « لم تخل كتابة من الإشارة إلى القصد والقصدية والمقصدية، ومما يفيد هذا المعنى؛ إن الباحثين جميعهم يجعلون المميز الأساسي بين الإنسان وغيره المقصدية، ولكن هناك من قصرها على ما ورد فيه جذرها صراحة أو ضمنا( هرمان باريت Parret)، ومنهم من جعلها مسبقة( غريماس Greimas) كما أن منهم من جعلها ميكانيكية موجهة( أوستين Austin) وسيرل (Searl ) وكرايس ( Grice). بيد أنها لا تقتصر على المتكلم، ولكنها تشمل المخاطب أيضا ؛ ولهذا فقد تتفق المقصديتان درجات من الاتفاق، وقد تختلفان درجات من الاختلاف، مما أدى إلى طرح إشكاليتها الفلسفية والمنهاجية، بحكم أنها غالبا ما تكون ظاهرة في النص ، وإنما يفترض أنها تكمن خلفه. لذلك ، بذلت محاولات لصورنتها( جان بيتيتو Jean Petito / وليو أبستل Leo Apstel ) للخروج بها من ميدان علم النفس إلى مجال اللسانيات. إنها - مهما اختلفت وجهات النظر في كيفية تناولها - مجمع على وجودها. كأنها تكسب الكلام دينامية وحركة بل هي منطلق الدينامية».

وهكذا، تتوزع القصدية بين المتكلم والمخاطَب، بل إنها عصب الكلام وسبب ديناميته حسب الباحث محمد مفتاح، ويعني هذا أن الأدب بوصفه كلاما وجملا وملفوظات لغوية يحوي مجموعة من المقاصد، المباشرة أو الضمنية، سواء أفصح عنها المتحدث أم أضمرها ، أي إن الرسائل التي يمررها المخاطب كالدفاع عن مذهبه، أو ترجيح رأي نحوي أو بلاغي، أو غيرها من قصديات الخطاب، تمثل مقاصد رئيسة في الخطاب، أما تعاطف المتلقي مع محدثه، وتأييده فيما ذهب إليه يمثل مقاصد ثانوية. أي إن القصدية هي:« تلك الشبكة من الأفكار والقيم والرموز لهذا العلم أو ما يمكن تسميته بقاعدة توازنه الداخلي. إنها المفاتيح الأساسية المعتمدة بين الباث والمتلقي في بناء التفسير واستيعابه ».